المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

جماليات المكان
في رواية (آخر حقول التبغ) لطاهر الزهراني

Aesthetics of the place in the novel
(The Last Tobacco Fields)
by Taher Al-Zahrani

بقلم الدكتور

غانم بن سليمان الغانم

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
والدراسات الاجتماعية ـ بجامعة القصيم ـ المملكة العربية السعودية

الجزء الثاني (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

جماليات المكان في رواية (آخر حقول التبغ) لطاهر الزهراني

غانم بن سليمان الغانم

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية ـ بجامعة القصيم ـ المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : ghanem@yahoo.com

الملخص

إن المكان أحد أهم عناصر البناء الروائي، والمرتكز الذي ينهض عليه بناء الرواية؛ لما يحمله من أبعاد جمالية وفنية، تسهم في التأثير في مجرى الأحداث، وبناء الشخصيات، وبه تضمن الرواية تماسكها الفني، فالمكان ليس عنصرًا مكملًا، بل أساس تحتاج إليه الرواية لبناء عالمها الشامل.

ويُعد الكاتب طاهر الزهراني واحدًا من الكتَّاب السعوديين الذين اهتموا بالمكان في أعمالهم السردية؛ إذ حظيت الأماكن في أعماله بعناية خاصة، وقد شكلت بتنوعها وحضورها الفني ظاهرة تستدعي الوقوف عندها، ودراستها، والبحث في تمظهراتها، وأنماطها، ودلالاتها الفنية.

وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان (جماليات المكان في رواية آخر حقول التبغ لطاهر الزهراني)؛ إدراكًا لأهمية المكان في العمل الروائي أولًا، وثانيًا لحضوره بشكل واضح وأساسي في عملية بناء الرواية عند طاهر الزهراني.

وتجيب هذه الدراسة عن التساؤلات التالية:

كيف كان حضور المكان في رواية (آخر حقول التبغ)؟ وما تمظهراته وكيفية تشكله؟ وما أنماطه وتقاطباته؟ وما الأثر الفني والدلالي الذي تركه المكان في هذه الرواية؟

الكلمات المفتاحية: جماليات، المكان، الرواية، تمظهرات، تقاطبات.

Aesthetics of the place in the novel (The Last Tobacco Fields) by Taher Al-Zahrani

Ghanem bin Suleiman Al-Ghanim

Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Qassim University.

Email: ghanem@yahoo.com

Abstract

The place is one of the most important elements of the novel construction and the basis on which the construction of the novel is built. Because of its aesthetic and artistic dimensions that contribute to influencing the course of events and building characters, and with it the novel ensures its artistic coherence.

The place is not an integral element, but rather a basis that the novel needs to build its comprehensive world.

The Writer Taher Al-Zahrani is considered one of the Saudi writers who paid attention to the place in their narrative works.

The places in his works were given special care. With its diversity and artistic presence, places constituted a phenomenon that requires stopping at, studying, and researching its manifestations, patterns, and artistic indications.

This study was entitled (The Aesthetics of Place in the Novel of the Last Tobacco Fields by Taher Al-Zahrani) in recognition of the importance of the place in the work of the novelist first, and secondly for its presence clearly and fundamentally in the process of building the novel by Taher Al-Zahrani.

This study answers the following questions:

How was the presence of the place in the novel (The Last Tobacco Fields)? What are its manifestations and how the same is formed? What are its patterns and polarities? What is the artistic and semantic impact left by the place in this novel؟

Keywords: aesthetics, place, novel, manifestations, polarities.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن المكان واحد من أهم عناصر البناء الروائي، فهو المرتكز الذي ينهض عليه بناء الرواية؛ لما يحمله من أبعاد جمالية وفنية تسهم في التأثير في مجرى الأحداث، وبناء الشخصيات، وبه تضمن الرواية تماسكها الفني، فالمكان ليس عنصرًا مكملًا، بل هو أساس تحتاج إليه الرواية لبناء عالمها الشامل.

ويُعد الكاتب طاهر الزهراني واحدًا من الكاتب السعوديين الذين اهتموا بالمكان في أعمالهم السردية؛ إذ حظيت الأماكن في أعماله بعناية خاصة، وقد شكلت بتنوعها وحضورها الفني ظاهرة تستدعي الوقوف عندها، ودراستها، والبحث في تمظهراتها، وأنماطها، ودلالاتها الفنية.

وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان (جمايات المكان في رواية آخر حقول التبغ لطاهر الزهراني) إدراكًا لأهمية المكان في العمل الروائي أولًا، وثانيًا لحضوره بشكل واضح وأساسي في عملية بناء الرواية عند طاهر الزهراني.

وأهمية أيّ دراسة إنما تتحدد من خلال ما تسده من ثغرات في ميدانها، وبما تجيب عنه من أسئلة تتعلق بالعمل المدروس؛ ولذلك جاءت هذه الدراسة للإجابة عن التساؤلات التالية:

كيف كان حضور المكان في رواية (آخر حقول التبغ)؟ وما تمظهراته وكيفية تشكله؟ وما أنماطه وتقاطباته؟ وما الأثر الذي تركه المكان في الرواية؟

ويسعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف تتلخص في الآتي:

١- التعريف بعَلَم من أعلام السرد السعودي المعاصر من خلال دراسة أعماله.

٢- إبراز أهمية المكان في العمل الروائي، والكشف عن دوره وجمالياته في الرواية المدروسة.

٣- معرفة تمظهرات المكان وتشكله وجمالياته في الرواية المدروسة.

٤- الكشف عن تقاطبات المكان في الرواية المدروسة.

وأما منهجية العمل في هذا البحث فهي بناء على ما تقتضيه مادة الدراسة، وسعيًا إلى تحقيق الأهداف التي تصبو إليها، فستشتمل على مبحثين، تسبقهما مقدمة وتمهيد، وتعقبهما خاتمة متبوعة بثبت للمصادر والمراجع؛ لتكون خطة العمل على النحو التالي:

المقدمة: وفيها عرض سريع لأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأسئلته، وأبرز أهداف الدراسة.

التمهيد: وقد قسمته إلى جزأين هما:

١- المكان: مفهومه، وأهميته في العمل الروائي.

٢- ملخص الرواية.

المبحث الأول: وتحدثت فيه عن تمظهرات المكان في رواية آخر حقول التبغ وتعالقه مع العناصر البنائية الأخرى للرواية.

المبحث الثاني: تقاطبات المكان في الرواية، وقد قسمته إلى قسمين:

١- المكان المغلق.

٢- المكان المفتوح.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وتعتمد الدراسة على الوصف والتحليل، للإبانة عن مرتكز هام في إنشاء النص الروائي عند طاهر الزهراني، سائلًا المولى عز وجل التوفيق والسداد.

التمهيد

ويشتمل على أمرين مهمين هما:

أولًا: مفهوم المكان وأهميته في العمل الروائي:

المكان لغة:

تعددت دلالات المكان في المعاجم اللغوية، فقد جاء في لسان العرب أن المكان بمعنى الموضع ويجمع على أمكنه وأماكن[١]، في حين ورد في كتاب العين على أنه: «موضع للكينونة، غير أنه لما كثر الاستعمال أجروه في التصريف مُجرى فَعَالٍ فقالوا: مكَّنَّا له وقد تمكَّن»[٢]، وسار الأزهري في (تهذيب اللغة) مسار الفراهيدي وردد ما قاله دون أي إضافة جديدة في دلالة الكلمة[٣].

أما في المعاجم الحديثة فقد وردت لفظة المكان بمعنى المنزلة، فيقال: هو رفيع المكان، وبمعنى الموضع، وجمعُه أمكنة[٤].

إذن كلمة (مكان) لم تخرج في دلالتها في اللغة عن المعاني التالية الموضع، المنزلة، المكانة، المحل.

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (د ت)، ج١٣، ص٤١٣، ٤١٤، مادة (مكن).

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ج٤ ص١٦٢.

(٣) انظر: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج١٠ ص١٦١.

(٤) انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ج٢، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٨٠٦.

المكان اصطلاحًا:

تناولت العديد من الدراسات مصطلح المكان بالدراسة، ومن أبرز التعريفات تعريف المكان بأنه: «مساحة ذات أبعاد هندسية وطبوغرافية، تحكمها المقاييس والحجوم، ويتكون من مواد، ولا تحدد المادة بخصائصها الفيزيقية فحسب، بل هو نظام من العلاقات المجردة، فيستخرج من الأشياء الملموسة بقدر ما يُستمد من التجريد الذهني، أو الجهد الذهني المجرد»(١).

وشغل المكان اهتمام الفلاسفة فعرفوه بأنه: «الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم، وينفذ فيه أبعاده، ويرادفه الحيّز»(٢).

وعلاقة الإنسان بالمكان علاقة جدلية مصيرية، «فلا يمكن أن يتصور الذهن لحظة من لحظات الوجود الإنساني خارج سياق المكان»(٣).

ويراد به في العمل السردي: ذلك المكان الذي يصنعه الكاتب في عمله السردي؛ فهو المكوِّن اللغوي التخييلي الذي تصنعه اللغة، وتقيمه الكلمات انصياعًا لأغراض التخييل وحاجاته(٤).

ويمثل المكان مكونًا محوريًّا في بنية السرد؛ إذ لا يمكن تصور حكاية

---

(١) اعتدال عثمان، إضاءة النص قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٠.

(٢) جورج صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (د.ت)، ١٩٩٤م، ص٤١٢.

(٣) حمد البليهد، جماليات المكان في الرواية السعودية دراسة نقدية، دار الكفاح للنشر والتوزيع، الدمام، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٢٨.

(٤) انظر: سليمان كاصد، عالم النص، دراسة بنيوية في الأساليب السردية، دار الكندي للنشر، عمّان، ٢٠٠٣م، ص١٢٧، وانظر: سمر روحي، الرواية العربية البناء والرؤيا مقاربات نقدية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٧٣.

من دون مكان، ولا لوجود أحداث خارج المكان[١]، فالمكان يكتسب أهميته الكبيرة من خلال ارتباطه الوثيق مع كل المكونات السردية الأخرى، كالأحداث والشخصيات، والرؤى السردية، واللغة، والزمان، وعدمُ النظر إليه ضمن هذا الارتباط الذي يجمعه بجميع عناصر البناء الروائي يجعل من العسير فهم الدور الفني الذي ينهض به المكان داخل الرواية[٢].

فالمكان ليس عنصرًا زائدًا في الرواية، فهو ركن أساسي من أركان الخطاب السردي، بل إنه في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل الأدبي كله[٣].

(١) انظر: محمد بوعزة، تحليل النص السردي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م، ص٩٩.

(٢) انظر: حسن حجاب الحازمي، البناء الفني في الرواية، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا، ط٢، ١٤٣٧/٢٠١٦م، ص٢٩٦-٢٩٧، وانظر: مزينة يحيى مشاري، جماليات المكان في أعمال عمرو العامري السردية، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا، ط١، ١٤٤١هـ، ص٣٠، وانظر: إبراهيم محمد الشتوي، دراسات في الأدب والنقد، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٧م، ص٥٢، وانظر: منصور محمد البلوي، المفارقة في الرواية السعودية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٩م، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣٣.

ثانياً: ملخص الرواية:

(آخر حقول التبغ)[١] لطاهر الزهراني[٢] ، تتحدث عن خضران الابن الذي يمثل الحاضر، وخضران الجدّ الذي يمثل الماضي، ويجتمعان ليصورا الإنسان الذي يؤرق الكاتب وبطله على حد سواء.

خضران الابن (الحاضر) شاب يعيش في مدينة جدة مع زوجة لا يجمع بينهما سوى مسمى الزوجية، فهي متسلطة مستبدة منفرة لزوجها، الذي كره البيت بسببها، فلم يعد البيت يمثل له الاستقرار، والهدوء، والراحة، بالإضافة إلى أن حياته العلمية صعبة كصعوبة حياته الزوجية، فهو كاتب يقتات من كتاباته، والمقابل المادي في نظره لا يستحق هذا العناء والتعب، لكنها تضمن له الاستمرارية في هذه الحياة الصعبة، التي يرى خضران أنه يعيش فيها مهمشاً، ويعاني من حالة الضياع وفقد الهوية، لكن حياته تتغير بعد ذلك بمجرد مرافقة جده خضران، ويصور الكاتب الزهراني علاقة خضران الابن بخضران الجد بأنها شديدة التعقيد، كعلاقة الحاضر بالماضي، مزاوجة بين الاحتفاء والبغض، وبين الاعتزاز والنفور، وبين اللقاء

---

(١) انظر: طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٢٠م.

(٢) طاهر بن أحمد الزهراني، روائي وقاص، ولد في جدة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، وتلقى تعليمه الأولي في مدارسها، التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وحصل على الشهادة الجامعية ١٤٢٥هـ، يعمل موظفًا بأمانة محافظة جدة، وله نشاط إبداعي من خلال إصداره لعدة أعمال روائية وقصصية منها:
١-إيفة (رواية). ٢- الصراع الدامي (رواية). ٣-جانجي (رواية). ٤- نحو الجنوب (رواية). ٥- الفيومي (رواية). ٦-الصندقة (مجموعة قصصية). ٧-آخر حقول التبغ (رواية)، انظر: قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٥هـ،٢/٦٧٣.

والصدام، فيقول على لسان خضران الابن:«نحن نتناوب الأدوار يا جدي العزيز، نحن ضحايا الظروف، أيها العجوز الذي أمقته وأحبه...»[١]، ويعود بعد أربع صفحات فقط ليؤكد على هذه العلاقة الشائكة فيقول: «أنا أعرف جدي جيدًا، رجل عظيم، شجاع وكريم، لكنه صعب المراس، أمقته وأحبه، أشفق عليه، وأخافه، لكل منا خيباته، تدمع عيناي من انكساره، أنا وهو كغيمتين تصطدمان فتسببان برقًا ورعدًا»[٢].

وهذه المرافقة التي بدأت بينهما هي التي غيرت مجرى حياة الابن خضران، وقلبت كيانه تمامًا، فقد وقف الابن على حكاية جده مع زراعة التبغ، حيث يروي الجد أحداثًا وقعت له قبل سبعة عقود بسبب زراعة التبغ.. وبعد هذه المرافقة انتقل خضران الابن مع خضران الجد إلى قرية (قلوه) في جنوب المملكة في تهامة، وبعدها وجد الابن خضران ضالته وهويته في إعادة بناء الحصن المهجور، وإظهاره بصورة حديثة بنى فيها حياته ووجهته المستقبلية.

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

المبحث الأول

تمظهرات المكان في رواية آخر حقول التبغ

يتميز بناء المكان في النص الروائي بالتنوع والتعدد، فلا وجود لمكان واحد فقط في الرواية، بل أماكن متعددة، حتى في الروايات التي تنحصر فيها الأحداث في إطار مكاني ضيق، تأتي مشتملة على عدة أمكنة داخل هذا المكان، أما في رواية (آخر حقول التبغ) فتجد الاحتفاء الكبير بالمكان من قبل الكاتب الزهراني، فهو يمثل عنده الأرضية التي تشيد عليها جزئيات العمل الروائي كله، وتنوع المكان وتعدده في الرواية؛ يعود إلى كثرة الأحداث في الرواية واختلاف الأزمنة وتعدد الشخصيات، وتقديم الزهراني لهذه العناصر من خلال المكان باعتباره الأساس الذي تتضح من خلاله هذه العناصر البنائية للنص.

فالرواية تقدم أماكن متعددة سعى من خلالها الكاتب الزهراني إلى تقديم رؤية واعية، تحاول المواءمة بين الواقع والفن، خصوصًا أن الفترة التاريخية التي يتحدث عنها في روايته شهدت تحولات على جميع الأصعدة (اجتماعيًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا)، -الفترة التاريخية بين خضران الابن وخضران الجد-؛ مما هيأ له تقديم رؤية مغايرة في روايته؛ لأن الكاتب المتمكن هو الذي «يتكلم بصوته الخاص لا بتقليد أحد سبقه، ولابد أن يعمل لإبداع صورة لرؤيته الفريدة»[(١)].

وقد قدم الكاتب الزهراني المكان بصفته الواقعية؛ بل بالغ في وصف المكان في الرواية إيهامًا بواقعيته، وهذا يفضي إلى واقعية المحكي على

(١) هالي بيرنت، كتابة القصة القصيرة، ترجمة أحمد عمر شاهين، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٢.

وجه العموم؛ ذلك أن «الأمكنة وتواترها في الرواية يخلقان[١] فضاءً شبيهًا بالفضاء الواقعي؛ وهما لذلك يعملان على إدماج الحكي في نطاق المحتمل»[٢].

كما في حديثه عندما وصف مكان محطة الوقود التي توقف عندها خضران الابن في طريقه إلى جده الذي يرقد في المستشفى، بعدما انعتق بهذا السفر من سجن زوجته له في بيته، وتسلطها عليه، يقول الكاتب:

«أتوقف لأتزود بالوقود من المحطة، أتأمل الكائنات الصباحية ذات الوجوه الناعسة، فأود أن أحتضن أصحابها، وأقول لهم: هذا يوم جديد، حياة جديدة، ابتسموا، لكن يبدو أنهم لا يعيشون تلك اللحظة مثلي تحت سطوة الابتهاج، كوب شاهي صباحي تطفو فوقه أوراق الحبق اليانعة...، لروزنة المزاج، وطريق ممتد، هذا ما كنت أنتظره من فترة طويلة، أن أكون لوحدي، وفي وقت مبكر، أسير على طريق الساحل الممتد، تغمرني الشمس المشرقة، بخار الشاي، منظر البحر، كل هذا يواكب لحظة الانسجام العظيمة التي أنتظرها..»[٣]، فهذا الوصف الطويل للمكان من أجل تقديم رؤية واقعية عن المحكي قادنا إلى معرفة ملامح الشخصية، وكشف عن أبعادها الاجتماعية والنفسية.

ولا شك أن وصف المكان وتتبع تفاصيله يُسهم بالضرورة في استكناه حياة الشخصية وكشف رؤاها، كما يُسهم في الكشف عن القيم والعادات

---

(١) أي يوجدان.

(٢) حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٦٥.

(٣) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص١٤.

والأيديولوجيات، كما في حديث الكاتب عن الحياة القاسية للوادي الذي مضت عليه سنوات، ولم تمطر عليه السماء، «مجاعة ممتدة استوطنت أودية وشعاب تهامة، زادت من وطأتها الحرب العالمية الثانية التي لم تدع منفذاً للقوت سوى حفنات تأتي من كندا»[١]، ثم يقول الكاتب في وصف حياة الذين يسكنون في أعلى الوادي: «كانت الحياة صامدة، ثلاثة بيوت من حجر، وحصن وحيد، كان يطلق على المكان شعب الجار، بسبب مجاورته لجبل عظيم يدعى المشوّط، كان أصحاب تلك البيوت أفضل حالًا من غيرهم، فلديهم من الماشية، وبعض القوت المخزّن ما يدفعون به الجوع لعدة أشهر قادمة»[٢]، ثم يقول عن الجد خضران الذي يطل من أعلى الحصن على امتداد الوادي ينتظر حركة تنبئ عن شيء، خبر منتظر، ضيف يبحث عن ملجأ أو طعام، بشارة تأتي بذكر الغائب، ثم يتحدث عن نظر خضران الجد إلى زوجته مستورة التي تقدم «قهوة القشر لوالده وعمه، ابنه الصغير متعلق بذيل ثوبها، الطفل مغبر الشعر، محمر الوجه بسبب البكاء، وفوح الأرض الجرباء، لونه الداكن مع الحصن يجعله يتماهى مع المكان..»[٣].

فالكاتب الزهراني ألح في روايته على عنصر وصف المكان، وبنى عمله على التصوير الذي يتكفل بتتبع أدق التفاصيل، فتحدث كثيرًا في وصف مكان بيت الزوجية، ومكان صديقه خالد (الشقة)، والمستشفى، وقرية (قلوة) الجنوبية التي يسكنها جده، والحصن المهجور، وقبل ذلك الطريق الذي يؤدي إلى تهامة، ومدينة جدة، والمقاهي التي فيها..، وغيرها الكثير مما

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ ، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤.

حفلت به الرواية.

واتكاء الكاتب على الوصف ليس إسرافًا في توظيفه؛ لأنه لم يكن مجرد ترف لغوي، أو عنصر تزييني للنص، بل تجاوز ذلك بوصفه عنصرًا مهمًّا في تشكيل مفردات النص، وتقديم لوحة مفصلة للحالة النفسية للشخصيات، كما يساهم في إماطة اللثام عن رؤاها الثقافية، والفكرية، والاجتماعية، بالإضافة إلى دوره البنائي في التمهيد للأحداث والاضطلاع بتتابعها وترابطها، وبالإضافة إلى إيهام القارئ بأنه يعيش في عالم حقيقي لا عالم متخيل(١)، فالوصف هو الأداة القادرة على تقديم المكان وبنائه، فهو وسيلة الروائي لتصوير المكان، وبيان أبعاده المختلفة(٢).

كما اعتمد الكاتب الزهراني على الزمن في وصف المكان في روايته، كما في حديثه السابق عن الوادي وعن الظروف الزمنية التي جعلته يبدو بهذا الشكل المكاني، ومثله أيضًا ما ذكره عن حكاية الجد التي حدثت قبل سبعة عقود، وتأثيراتها الواضحة على المكان، وعلى شخصيات المكان والتغيرات الواضحة التي حدثت بفعل الزمان بالمكان.

والعلاقة بين الزمان والمكان علاقة تكامل واحتواء، فالزمان لا يوجد مستقلًّا عن المكان، فهو كامن في المكان وأشيائه المشكلة لجغرافيته، حتى ليمكن القول بأنه: «لا يوجد مكان لا يتضمن زمنًا بشكل أو بآخر؛ ولذلك عُد الزمان بُعدًا من أبعاد الظاهرة المكانية، وأصبح الحديث يطال مكونًا متداخلًا هو الفضاء الزماني»(٣).

---

(١) انظر: منصور البلوي، المفارقة في الرواية السعودية المعاصرة، ص١٢٣.

(٢) انظر: حسن حجاب الحازمي، البناء الفني في الرواية، ص٣٠١،٣٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠١.

وقد استنهض الكاتب الزهراني المكان للكشف عن ملامح شخصياته ومرجعياتها، وعاداتها وتقاليدها، كما في حديثه عن بيت خالد صديقه عندما قدم إلى بيته، وجده مرتبًا ونظيفًا، رائحة جدرانه تعج (بالمعسل) العالق في جدرانه، ثم يصف البيت بأنه يتكون من ثماني غرف لا يستخدم صاحبها سوى غرفتين فقط، هما المجلس والمقلط ..، ثم يتحدث عن الكنبة التي يجلس عليها صديقه خالد، وهي أثيرة عنده، يجلس عليها كل يوم بعد أن يأتي من عمله، الذي يخلص له جدًّا، ويقول: «كل ليلة منذ أن عرفته يأتي من عمله، يستحم، ويتناول العشاء واقفًا في المطبخ، ثم يجلس على هذه الكنبة في المقلط، بعد أن يُعد شيشته، يشاهد فيلمًا، أو حلقة من مسلسله المفضل، ثم ينام قبيل منتصف الليل...»[(١)]، ثم يستمر في الحديث عن شخصية صديقه خالد، ويشرح أسباب عدم زواجه، ويفصل في هذا الأمر كثيرًا.

فالكاتب استنهض المكان للدخول إلى عالم الشخصية والكشف عن أحوالها المتعددة.

ولذلك ركّز الكاتب الزهراني على ربط الشخصيات بالمكان الذي توجد فيه، كحديثه عن علاقة إنسان الجنوب بالمطار، فمزارعه وجهده، وحصاده وأشجاره، وحيواناته تبقى رهينة المطر ليسقي الزرع، ولا يكتفي الكاتب برسم لوحة تصور حبور البشر عند هطول المطر، بل يشرك فيها الشجر والحيوانات، يقول: «يهدر الرعد فيهلّل الناس في الوداي، ويسألون الله المطر، يهدر الرعد فتنظر البهائم نحو السماء، تطمع في مياه تساعدها على البقاء، في خضرة يُنبتها المطر لترطب أجوافها التي يبست، حتى أشجار

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٣٣.

السدر تعتريها حركة، ويصدر منها حفيف اشتياق نحو السماء، يهدر الرعد، تبكي النسوة على العتبات، يرجون ما شاء الله، والرجال يحملقون في رؤوس الجبال، في أخاديد الشعاب، وجفاف البلاد»[١].

ويصف الكاتب حال الشخصيات وهي تنتظر المطر في هذا المكان الجنوبي، يقول: «والده يجلس مع عمه على سطح الحصن، ينظران في السماء، يلتمسان غيمة تحمل الخير، يرقبان العرضة والابتهال، والوميض الرابض فوق الغبار العالق بين السماء والأرض.

بدأت سحبٌ سوداء تتحرك من الشرق تزحف نحو قممهم، بدأت الرياح تصفق الأردية وتحرك العمائم، خضران يمد يده المخضبة بالدماء نحو السماء..»[٢]، ثم بعد ذلك يصف الكاتب المكان بعد هطول المطر الذي طال انتظاره طويلًا، يقول: «قطرات ماء كبيرة تباشر جباه القوم ولحاهم المغبرة، البرق يلامس قمم الجبال، الجنابي تلمع مرحّبة بالرحمة، امتزج المطر بدموع الفرح، وتتابع هدير البنادق المرحِّبة بالغيث، وانطلق ثغاء الماشية، وخوار الأبقار، وزغردة العجائز في زوايا بيوت الحجر، ثم يلمع البرق، ويضرب أعلى الحصن، ويضرب زريبة الغنم، يفرح الناس بصوت الرعد ولمع البرق..»[٣].

فالكاتب في استنهاضه للمكان في النصوص السابقة كشف بوضوح عن ملامح الشخصيات وعاداتها، وتقاليدها ومرجعياتها، الثقافية والاجتماعية والنفسية.

---

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ ، ص٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢.

وتشكل رواية (آخر حقول التبغ) حالة روائية مختلفة؛ حيث تميزت بتعدد الأمكنة التي تتحرك فيها الشخصيات، بوصفها جزءًا مهمًّا من توصيف بيئة الرواية، ويعبر تنوع الأمكنة عن تنوع الحياة فيها، وقد استأثر المكان الجنوبي بنصيب وافر من أمكنة الرواية؛ وذلك لكثرة الشخصيات والأحداث التي تمثل هذا المكان في الرواية.

ومما سبق يتبين أن المكان ووصفه عند الكاتب طاهر الزهراني في روايته له وظيفتان أساسيتان، وظيفة تفسيرية، حيث إن وصف المظاهر الخارجية من مدن وقرى، ومنازل، وأثاث، وأدوات، وملابس، يُسهم في الكشف عن حياة الشخصية الاجتماعية والثقافية والنفسية، أما الوظيفة الأخرى التي يؤديها المكان فهي الوظيفة الإيهامية، إذ إن وصف الأمكنة وتتبع تفاصيلها الصغيرة يُوهم القارئ بأنه يعيش في عالم حقيقي لا عالم خيالي(١).

والخلاصة مما سبق أن الكاتب الزهراني جعل المكان محورًا أساسيًّا في بناء روايته، فلا يمكن تصور هذه الرواية من دون المكان، فالمكان فيها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمكونات السردية الأخرى للرواية، كالأحداث، والشخصيات، واللغة الواصفة، والزمانِ، وعدمُ النظر إلى المكان ضمن هذا الارتباط الذي يجمعه بجميع عناصر البناء الروائي يجعل من العسير فهم قيمة العمل الفنية، والرؤية التي يريد الكاتب إيصالها إلى المتلقِّين.

(١) انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١١٤-١١٥.

المبحث الثاني

تقاطبات المكان في الرواية

التقاطبات المكانية في الرواية تأتي على شكل ثنائيات ضدية، «تجمع بين قوى وعناصر متعارضة، بحيث تعبر عن العلاقات والتواترات التي تحدث عند اتصال الراوي أو الشخصيات بأماكن الأحداث، ومن الملاحظ أن هذه التقاطبات أو الثنائيات الضدية تنسجم مع المنطق والأخلاق السائدة..»[1].

وتعدد الأمكنة واختلافاتها المتضادة في العمل الروائي يمنحان النص جماليات بتعالقهما مع العناصر الأخرى التي يقوم عليها العمل، وبذلك تكون بنية المكان «مفتاحًا من مفاتيح استراتيجية القراءة بالنسبة للخطاب النقدي، ومنطقة يلج منها القارئ إلى تضاريس النص، بقصد تفكيكه، واستنطاقه، والقبض على جماليات النص، أما التماسك الموضوعي فيأتي من خلال التقاطبات الضدية التي يفرزها المكان بعد أن يتحول إلى بؤرة تتمركز فيها حزمة من دلالات ناتجة من تعالق صَميمي وجوهري مع شخصية أو شخصيات النص»[2]، فالمكان يقوم على التعدد والاختلاف على عدة مستويات.

والمكان في (آخر حقول التبغ) قد تنوع وتعدد؛ مما يدل دلالة واضحة على احتفاء الكاتب الزهراني بثنائيات المكان؛ لذلك سأعتمد على بنية التقاطبات المكانية في تحليل روايته، للكشف عن جماليات المكان ودلالته،

---

(١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص٣٣.

(٢) خليل شكري هياس، القصيدة السير ذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٥٠.

حيث يقبل نص روايته تطبيق العديد من التقاطبات المكانية كالمفتوح والمغلق، والأليف والمعادي، والمركز والهامش، لكن هذه الدراسة ستركز على نوعين من الأماكن هما: الأماكن المغلقة، والأماكن المفتوحة، وهما بمثابة الأساس والأرضية التي تنطلق منها باقي التقاطبات أو الثنائيات الفرعية، التي نشأت عن هذا التقاطب الأساسي، مما يسمح بكشف أبعاد المكان المختلفة، ودلالته المتنوعة.

والتقاطب بين ثنائية المكان المغلق والمكان المفتوح «لا يخضع للشكل الهندسي، والتنظيم المعماري الذي يحمل قيمًا تنبع من داخل الشكل نفسه ضِيقًا أو اتساعًا فقط، بل يوجد تعارض بينهما، قد يكون ناتجًا من شعور الإنسان تجاه المكان، والطريقة التي يدرك من خلالها ذلك المكان، وارتباطه بسلوك الإنسان وخبرته حول المكان»[١].

١) المكان المغلق:

يقوم المكان المغلق بدور مهم على مستوى الفهم والقراءة، والتفسير في العمل الروائي، فهو يمثل الحيّز الذي يحوي حدودًا مكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير من المكان المفتوح[٢]، والأماكن المغلقة هي أماكن مأوى الإنسان واستقراره، سواء أكان مختارًا لها، أم مفروضة عليه.

وقد ظهرت هذه الأمكنة المغلقة في رواية (آخر حقول التبغ)، وتنوعت على عدة أشكال هي:

---

(١) مزينة يحيى مشاري، جماليات المكان في أعمال عمرو العامري السردية، ص٨٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١١٤-١١٥.

أ- البيوت:

البيت مفردة تحمل دلالة كبيرة، فهو كون الإنسان الخاص؛ لذلك فإن وصف البيت في حقيقته وصف للإنسان الذي يسكنه، فالبيت بموقعه، وحجمه، وأشيائه يعكس مستوى الشخصية ووضعها، ويقدم فكرة كاملة عنها، فالبيت عنصر مهم من عناصر المكان الروائي، فلا تخلو رواية من وجود البيت كجزء رئيس من أجزاء المكان فيها؛ لأن الشخصيات لابد لها من بيت تسكنه وتستقر فيه(١).

وفي هذه الرواية يحضر البيت بشكل واضح، فلا يوجد شخصية لها دور رئيس في الرواية ليس لها بيت تسكنه، كبيت خضران الابن الذي يسكنه مع زوجته ريم، وبيت صديقه خالد، وبيت والدته، وبيت الجد خضران، والشقة التي استأجرها للسكن فيها في الجنوب، وغيرها.

فالبيوت في هذه الرواية متعددة، لكن كيف وصف الكاتب هذه البيوت؟ وما دلالاتها التي تقدمها؟

نبدأ أولًا بالحديث عن البيت الذي يجمع خضران الابن مع زوجته ريم، وتعتبر ريم هي المالكة لهذا البيت، وعندما تنظر إلى وصف هذا البيت تجده فقيرًا جدًّا لم يوضِّح المكان وحدوده، وإطاراته ومقاييسه، وغرفه، لكن وضح الدلالة التي يقدمها هذا البيت، وهو كما يسميه الكاتب (خندق الموت)؛ نظرًا لما تمارسه عليه زوجته من أوامر وقوانين، جعلته يبدو أنه سجن لديه، ومجرد الخروج منه يحصل له التحرر والانعتاق من هذا السجن، يقول في وصف خروجه من المنزل: «بعد أن قام مفتاح البيت بالمهمة العظمى له، وأصدر ذلك الصوت الذي يشبه صوت الفرج إن كان للفرج صوت،

(١) انظر: حسن حجاب الحازمي، البناء الفني في الرواية، ص٣١٨.

تنفّست الصعداء، تركت المصعد، ونزلت عبر الدرج حتى أشعر بمعنى الانعتاق، كنتُ كلما نزلت طابقًا أشعر بالضوء يعمّ المكان»[١].

ثم يقول في موضع آخر:«الحركة والمسافات التي تذهب بي نحو مكان بعيد، يجعلان البهجة تغمرني، شعور التحرر والجريان، شعور الحياة المنبثقة من خندق الموت، شعور المياه السائلة من جليد صلدٍ، هذا شعوري وأنا في طريقي»[٢].

والبيت هنا يقدم دلالة مخالفة للمألوف عن دلالة البيت التي هي الألفة والمحبة، والاستقرار والهدوء والراحة، وإحجام الكاتب عن الدخول في وصف تفاصيل المكان للدلالة على ما يشكله هذا البيت للشخصية خضران الابن، وللدلالة على عدم التوافق بين الشخصيات التي تمثل هذا البيت، يقول الراوي في حديثه عن خضران عندما عاد إلى بيت زوجته ريم: «وصلت البيت عشاء مع أمنية أن أجد الباب موصدًا، ليس لدي رغبة في أي حديث لا ينتهي، أدخلت المفتاح، أدرته، وفتح الباب لكن الأبواب الأخرى كلها موصدة، إذًا هي خارج البيت، بعثت لها رسالة لتوثيق عودتي للبيت، ولإبلاغها أن الأبواب قامت بالواجب»[٣].

ويتضح هذا الأمر عندما تحدث الكاتب عن بيت صديقه خالد، ففيه التفصيل المتميز على لسان شخصية خضران، فتحدث بداية عن مواقف سيارات البيت، وتحدث عن نظافته وغرفه، وما يستعمل منها صديقه وما يهمله، ومكان أكله وجلوسه ونومه، ومطبخه وأدوات مطبخه، كل هذا

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص٣٢.

التفصيل للدلالة على راحة شخصية خضران لهذا البيت، وشعوره بالتحرر والانعتاق من سجن بيت زوجته ريم، يقول: «عندما وصل خالد تناولنا العشاء، وتبادلنا أطراف الحديث على طاولة الطعام ذات المقعدين، وبعد أن انتهينا توجّه كلٌّ منا إلى شأنه، أخذت ملابسي من الغسالة، وبدأت في كيها، بينما صوت التلفاز يصلني، أشعر بنوع من التحرر وأنا أكوي الملابس، شعور غريب، رغم أني لا أقوم بهذا الفعل في منزلي»[١].

كما شغل وصف مكان بيت خضران الجد حيزًا طويلًا؛ ويعود هذا إلى عدة عوامل أولها: ارتباطه بالأحداث الرئيسة في الرواية. وثانيًا: يعود إلى ارتباطه بعدد كبير من الشخصيات التي تمثل هذا البيت، وثالثًا: يعود إلى راحة الشخصية الرئيسية خضران الابن إلى هذا البيت وإحساسه بالاستقرار والهدوء، والطمأنينة والراحة والألفة.

فخضران الابن يرى أن اللحظات في هذا البيت ينبغي أن تخلد، يقول: «إنها لحظة بحاجة إلى تخليد، ليت اللحظات تتحنّط، كنت خارج الزمان والمكان في تلك اللحظة»[٢].

فلهذا الأمر اهتم الكاتب بوصف المكان وتفاصيله وشخصياته، بل امتد إلى وصف ما حوله من الجبال والأشجار والطرق، يقول الكاتب: «جلس العجوز على السرير الحديدي، عرشه الذي هجره الأسابيع الماضية، وتحلق حوله عدد من الرجال، ومن أهل الدار ينتظرون أوامره، ويعبرون عن فرحتهم بعودته بالسلامة، أنظر في حرف الجبل المنحني إلينا الممتد أمام

(١) المرجع السابق، ص٣٤.

(٢) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٧٩.

عيني حتى يضيع في ارتفاعه نحو السماء...»[١].

وهكذا يُقدم البيت في هذه الرواية دلالات متنوعة ومتعددة، يبين لنا ألفة المكان أو عدائيته.

ب- المستشفى:

وفي توظيف آخر للأماكن المغلقة يستعين الكاتب بالمستشفى، وهو مكان يثير القلق والتوتر بأبعاده الهندسية، وجدرانه وممراته وأسرّته؛ ولهذا جاء الوصف متوافقًا مع هذا الأمر.

يقول الكاتب: «الليلة الأولى اخترت أن أنام في السيارة؛ لأنه لا مكان لي في الغرفة المكتظّة، تناولت وجبة المستشفى من دون رغبة فقط كي لا أشعر بنوبة جوع أثناء النوم...»[٢]، ويقول في موضع آخر: «أرقب باب المستشفى ينفتح وينغلق، أناس يخرجون بوجوه عليها البسمة، وأخرى يغلفها الحزن..»[٣]، ويشكّل المستشفى مساحة محدودة وضيقة؛ لكونه مكانًا طارئًا ومفارقًا للمعتاد؛ ولأن المستشفى مكانٌ محبِط واستلابي، فإن الشخصية ترى أنه كالسجن يقيد من حريتها، يقول الكاتب على لسان خضران الابن: «حمدت الله أن أبي سيكون هنا غدًا، فهو أحق بالبقاء معه خلال الأيام المقبلة، أما أنا فأصبحت مرهقًا من الأيام التي أمضيتها في المستشفى، كل ما أطمح إليه بعض الحرية بعد أيام لم أعرف فيها سوى ساعات أخرجها في المساء»[٤].

---

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ ، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦.

(٤) المرجع السابق ، ص٢٥.

ويقول عند لحظة خروجه من المستشفى: «لم يكن لدي أغراض أحملها معي، كنت أنتظر أبي ليأتي فأذهب مباشرة إلى جدَّة، أريد أن أترك تلك الأجواء المعّقمة، ذلك البياض المستطير، والذي يحاصرني في أيامي الأخيرة لدرجة الاختناق»[1].

وهكذا استعان الكاتب بهذا الوصف للمكان المغلق للدلالة على ما يثيره من قلق وتوتر، وانعدام حرية في شخصيته الرئيسة خضران، فهو يُعد من الأمكنة غير المألوفة والمنفرة لدى شخصية الرواية الرئيسة.

ويمكن القول: إن الأمكنة المغلقة كان لها حضورها الفاعل في رواية طاهر الزهراني، بوصفها مسرحًا لرؤية الشخصيات، ونظرتها للأشياء، وألفتها أو معاداتها، وتعددت دلالات هذه الأماكن، كما تباينت درجة حضورها في الرواية، ففي البيوت يلاحظ مثلًا الحضور القوي للمكان في وصف بيت الجد خضران، ومثله في وصف بيت صديقه خالد، بينما يقل: وينحصر في وصف بيت زوجته ريم؛ نظرًا لعلاقة الشخصيات بالمكان وارتباطها به، أو نفورها منه وابتعادها عنه.

وفي المستشفى يركز الكاتب على بيان الأثر النفسي في علاقة الشخصيات بالمكان، كما حاول من خلاله رصد التغيرات التي حدثت في شخصية خضران الابن، حيث شكل هذا الأمر مفترقًا رئيسيًا في الرواية.

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ ، ص٢٧.

٢) المكان المفتوح:

هو المكان المفتوح على الخارج، وهو حيز مكاني لا تحده حدود ضيقة، و«يُشكل فضاءً رحبًا، تتحرك فيه الشخصيات»[١].

وقد حضرت الأماكن المفتوحة في (آخر حقول التبغ)، وتنوعت بين الأماكن المفتوحة العامة مثل: مدينة جدة، والبحر، والشارع، والمحطة، والبقالة، والمقاهي، والأماكن المفتوحة الخاصة، مثل: قرية (قلوة) ، والوادي في القرية.

وشكلت هذه الأماكن المفتوحة إطارًا لأحداثها، وتجارب شخصياتها، حيث تخضع هذه الأمكنة لاختلافات في شكلها الهندسي، ما بين المساحات المتوسطة أو الكبيرة؛ مما جعلها متنوعة متعددة في هذه الرواية.

أ- الأماكن المفتوحة العامة:

في النظر إلى الرواية يُلاحظ الفقر الشديد في وصف مدينة جدة من قبل الكاتب، فلا تجد إلا إشارات عارضة وبسيطة جدًّا، لا تُقدم فكرة واضحة عن المكان في مدينة كبيرة كجدة، وأبرز هذه الإشارات ما تحدث به عن أحياء جدة الجنوبية، والحالة الصعبة التي يعيش فيها أهلها، يقول: «بعض أحياء جدة تغرقها مياه الصرف الصحي، ويتزحلق الناس بالخراء وهم في طريقهم إلى المدارس والأعمال، ويفتك الضنك في الأحياء الجنوبية الفقيرة..»[٢].

(١) أوريدة عبود، المكان في القصة الجزائرية الثورية، دراسة لنقوش ثائرة، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م، ص٥١.

(٢) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٤٤.

ولعل هذا الاقتصار الشديد في وصف المكان يُعود إلى أن هذا المكان تقل الأحداث الرئيسية فيه، كما أنه يُشكل مكانًا معاديًا لشخصية الرواية الرئيسة وهو خضران الابن، ويتضح هذا الأمر في حديث الكاتب عن عودة خضران إلى جدة، يقول: «بعد ساعات من السير والتوقف، والتردد أيضًا، أشاهد من بعيد أنوار جدّة في قلب الليل، فتتلاشى الصور، وأفكر في ريم، لقد حضرت الآن، وبدأت تعبث بالقيود وتجتاح المخيلة»[1].

فعدم ألفة مكان جدة من قبل خضران يعود إلى كرهه لبيت زوجته ريم الذي يقع في جدة، وما يشكله هذا البيت من القيود والقوانين المزعجة لخضران.

١- الشارع:

حظي الشارع أو الطريق بنصيب وافر من وصف الكاتب لمكانه؛ لأنه يُقدم دلالة خاصة قصدها الكاتب ووضحها في شخصية خضران الابن الذي غادر جدة، التي تُشكل له الكره والاستلاب والعدائية، والطريق هو المخلص له من هذا كله يقول: «الحركة والمسافات التي تذهب بي نحو مكان بعيد، يجعلان البهجة تغمرني، شعور التحرر والجريان، شعور الحياة المنبثقة من خندق الموت، شعور المياه السائلة من جليدٍ صلدٍ، هذا هو شعوري، وأنا في طريقي إلى حيث جدي المأسور فوق سريره»[2].

ولهذا يصف الكاتب هذا الطريق وتفاصيله؛ لأنه يُقدم هذه الدلالة الخاصة لشخصية خضران الرئيسة، يقول في وصف طريق الساحل: «الطريق طويل، أمامي الكثير من الوقت، الآن أصبح الطريق مزدوجًا، وله

(١) المرجع السابق، ص٣١.

(٢) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص١٣.

مسارات متعددة، يبدو كأن الناس قد هجرته بعد أن كف عن ابتلاعهم خلال العقود الماضية، لقد كان طريق الساحل لعنة كبيرة في حياة الناس، كان يلتهم البشر... لم يحدث أي تغيّر إلا عندما نبتت على جوانبه تلك الأشجار الحمراء، وبدأت تلتهم الكثبان، وتنزف بلا توقف، لدي رغبة في مواصلة الطريق... لا أريد لهذا الطريق أن ينتهي»(١)، ويقول في موضع آخر عن هذا الطريق الساحلي: «أسير على طريق الساحل الممتد، تغمرني الشمس المشرقة، بخار الشاي، سيجارة أولى، منظر البحر، كل هذا يواكب لحظة الانسجام العظيمة التي أنتظرها منذ زمن، يا لَلأشياء البسيطة المؤثرة!، وأتساءل ما هذه المتعة الرائعة التي تأتي من أشياء بسيطة»(٢).

وحديث الكاتب عن الطريق وما يصادف شخصية خضران في طريقه من قرى ومحافظات وأشخاص بائعة يقفون على قارعة الطريق، كوقوفه عند المرأة البائعة التي تستقبل السائرين على هذا الطريق منذ أربعين سنة، تستقبلهم بالسمك والقرصان والخمير، ويصف المكان الذي تجلس فيه المرأة فيقول: «المكان مليء بالعرش العشوائية، والباعة المتجولين، الذباب منتشر في كل مكان، فوق ارتال السمك، وعلى وجوه الباعة، هو فقط يتجنب حفرة الميفا المتقدة بالجمر الأحمر...»(٣)، ووصف المكان في الشارع يطول ويتعدد في هذه الرواية.

٢- أماكن عامة متعددة:

هذه الأماكن كانت هامشية في الرواية: لذلك لم تحضَ بالوصف الجيد

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ ، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧.

لها؛ نظرًا لقلة أحداثها؛ ولعدم أهمية تفاصيل المكان على شخصيات الرواية الرئيسة.

وهذه الأماكن هي:

• المقاهي في جدة: فقد تحدث الكاتب عن ذهاب خضران إلى مقهى النورس في جدة، ووجد هذا المكان قد تغير، فبدلًا من امتلاء الناس وازدحامهم عليه، أصبح خاليًا مهجورًا، يقول: «ذهبت إلى مقهى النورس، صُدمت عندما ارتقيت إلى سطح المكان...، أصبحت القطط تجلس على آرائكه بسبب خلوه من الناس...، طلبت الشاي وجلست وحيدًا»[١].

ثم يتحدث عن مقهى مجاور لبيت الحكمة التقى فيه خضران مع ندى التي ستصمم له التصاميم الجديدة للحصن المهجور في قرية (قلوة) الجنوبية، وهذا الحديث من قبل الكاتب خالٍ تمامًا من وصف المقهى ومكانه، وشكله وطاولاته، وكل ما يتصل به؛ لأنه يعده مكانًا هامشيًّا لا يؤثر في أحداث الرواية[٢].

• محطة الوقود: التي وقف عندها في طريقه للجنوب كانت خالية أيضًا من وصف المكان، فقط ذكرها باسم (محطة الوقود)، ولم يتحدث بشيء عنها[٣].

• البحر: الذي مرَّ عليه في طريقه إلى الجنوب، لم يذكر عنه شيئًا سوى أنه شمَّ رائحته، وهي تجلب الراحة والانتعاش[٤].

---

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

(٤) المرجع السابق، ص٣٠.

• البقالة: وقد ذكر أنها تشكل له الطمأنينة والانعتاق من سيطرة زوجته ريم، وهو في طريقه للسفر إلى الجنوب؛ لكن لم يفصل في مكان البقالة، بل ذكر أنه دخل ثم خرج منها متزودًا بالسجائر التي تكفيه خلال طريقه إلى جده في الجنوب.

وهكذا تتعدد وتتنوع الأماكن المفتوحة العامة، لكن الشارع حظي بالنصيب الوافر من وصف المكان؛ لدوره الهام في أحداث الرواية وشخصياتها.

ب- الأماكن المفتوحة الخاصة:

ركزت الرواية كثيرًا على هذا النمط الخاص من المكان المفتوح، وحظي بالنصيب الأكبر من اهتمام الكاتب به؛ نظرًا لارتباطه بالشخصيتين الرئيسيتين في الرواية خضران الابن وخضران الجد؛ وكذلك لأنه أصبح مسرحًا خاصًّا تجري عليه أحداث الرواية وتغيراتها، وتطوراتها الجوهرية.

وأبرز هذه الأماكن:

١- الطريق إلى قرية (قلوة) الجنوبية:

فقد حظي هذا الطريق بتركيز خاص لدى كاتب الرواية، فتحدث فيه عن حال الطريق والمعاناة التي يجدها سالكو هذا الطريق قديمًا، ثم التحول الذي حصل له بعد تزينه وتسهيله للسالكين عليه، يقول: «الطريق ممهَّد بشكل مقبول، ونحن نسير نتسلل أغصان السدر، وكذلك الطلح التي ينبغي أن يكون السائر حذرًا منها بسبب أشواكها الشرسة، ربما الطلح هي الشجرة الأكثر انتشارًا في الوادي، ورغم شكلها البشع إلا أنه لا غنى عنها هنا، تأكل منها الماشية، يحبها النحل، وإذا يبست فنعم الحطب حطبها برائحته الطيبة

وجمره المتقد..»[١].

ويصف الكاتب الطريق في موضع آخر بأنه موحش في فترة ما بعد المغرب، وخاصة بعد أن نزح أغلب الناس إلى المدن، ولم يبق إلا كبار السن ممن استوطنوا هذا المكان منذ عقود، يقول الكاتب: «أسير بهدوء في الظلام، أرى بريق عيون الضباع، وأسمع صرير أشواك الطلح على سقف السيارة، مما يعطي انطباعًا بالرعب، لكن العيون لا تلبث إلا أن تغادر، ولا يلبث الطلح أن يرفع مخالبه، فتشعر أن الكائنات تبتسم حولك من فزعك، فلا تملك إلا أن تبتسم»[٢].

وقد ركز الكاتب على وصف مكان هذا الطريق؛ لأنه يؤدي إلى القرية التي هي محور الأحداث الرئيسة في الرواية، وتدور أغلب الشخصيات في فلكها وعالمها.

٢- القرية:

احتلت القرية حيزًا كبيرًا من مكان الرواية وأحداثها وشخصياتها؛ ولذلك ركز عليها الكاتب كثيرًا، فتحدث عن حالة القرية بين حاضرها وماضيها من خلال حكاية الجد خضران لحفيده خضران عن زراعة أجداده للتبغ، والأحداث اللافتة التي صاحبت هذه الحكاية، وكان لها عظيم الأثر على القرية نفسها وعلى أهلها أيضًا.

فالكاتب أسهب في وصف مكان القرية وشخصياتها، وبيوتها ومعيشتها، واهتمامات أصحابها وأعمالهم، وزرعها وحيواناتها، وكل شيء يتعلق بها.

---

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

من ذلك حديثه مع خوسيه الذي جلبه الحفيد خضران لتجديد الحصن في القرية بعد أن منحه جده له، يقول: «وأنا أقود سيارتي... كنت أشاهد خوسيه يتلفت في المكان، يسحره أن المساكن وحتى المزارع متماهية مع المكان، كل شيء يغيب في الآخر، يشرح خوسيه معبرًا عن فرحته بهذه المشاهد، إن طبيعة المكان، وحضور الجبال، ساهم في هذا التماهي بين الأشياء»(١)، ثم يتحدث بعد ذلك عن اعتماد أصحاب هذه القرية على المزارع، فهي أساس حياتهم، يقول: «أخبرته أن المزارع يطلقون عليها هنا اسم البلاد؛ لكونها هي أس حياتهم؛ لهذا لا شيء يوازي أهميتها، حتى البيوت أقيمت هنا من أجل حماية البلاد...، البلاد هي أعز ما يملك الإنسان هنا، وحضوره من عدمه متعلق بوجود هذه المساحات التي يعتبرها بلاده»(٢).

وأبرز شخصيات القرية هو خضران؛ لذلك أطال الكاتب الحديث عنه وعن صفاته وأعماله وبيته، وعلاقاته مع الآخرين، يقول الكاتب عن عمله: «شرع خضران في حراثة البلاد، وبدأ ينهض بأمور العائلة من جديد، من الطين سوف يصعد، سوف تعود الحياة مع تراقص السنابل، وأغاني الحصاد، كانت العائلة كلها تحرث الأرض، تنقي الأرض من الأعشاب، ويحضر الأطفال ببهجتهم يرتعون في الطين، ويطلقون الضحكات...»(٣).

فالكاتب ركز كثيرًا على هذه القرية؛ لأنها تشغل الحيز الأكبر من مكان وأحداث وشخصيات الرواية؛ لذلك جاء هذا الاهتمام الخاص بكل تفاصيل القرية.

---

(١) طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، ص٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣.

ومما سبق يتضح أن تقاطب المكان المغلق والمكان المفتوح كان حاضرًا في رواية طاهر الزهراني، فالمكان في الرواية قد تعدد وتنوع؛ مما يدل دلالة قاطعة على احتفائه في روايته بالتقاطبات المكانية، وثنائيات المكان وتحميلها أبعادًا ودلالات خاصة ومتنوعة، حفلت بها الرواية كاملة، حتى أصبح المكان هو المسيطر على حركة الأشخاص واتجاه الأحداث في الرواية.

الخاتمة

يتضح مما سبق احتفاء الكاتب طاهر الزهراني بالمكان احتفاءً ظاهرًا وأساسيًّا، فهو ركن من الأركان التي تقوم عليه الرواية، ولا يمكن تجاهله أو الاستغناء عن النظر إليه؛ لأنه يُقدم وظائف متعددة، ودلالات متنوعة، تعالقت مع العناصر البنائية الأخرى لتشكيل هذا العمل الروائي.

ويمكن جمع النتائج التي خرجت بها الدراسة في النقاط التالية:

١- احتفاء الكاتب الكبير بالمكان في بناء روايته، واعتباره عنصرًا أساسيًّا تعالق مع العناصر البنائية الأخرى؛ لتقديم هذا العمل الروائي.

٢- أدى المكان ووصفه دورًا بارزًا في إظهار شخصيات الرواية، فقد ربط الكاتب الشخصيات بالمكان الذي توجد فيه؛ ليساهم في كشف ملامح الشخصيات ومرجعياتها، وعاداتها وثقافاتها، وتقاليدها واهتماماتها.

٣- استأثر المكان الجنوبي بالنصيب الوافر من أمكنة الرواية؛ لذلك كثرت الشخصيات والأحداث التي وجدت في هذا المكان في الرواية.

٤- يعدُّ البيت أكثر الأماكن المغلقة حضورًا في الرواية.

٥- حظيت الأماكن المفتوحة الخاصة (القرية، طريق القرية) بالنصيب الأكبر من اهتمام كاتب الرواية؛ لارتباطهاالوثيق بالأحداث والشخصيات الرئيسة في الرواية، فهي تُعدّ مسرحًا أساسيًّا لها.

٦- شكل التقاطب بين المكان المغلق والمكان المفتوح حضورًا فاعلًا في الرواية، ومن خلاله تكشفت ثنائيات أخرى كالألفة أو العدائية، والمركزية أو الهامشية.

٧- كشفت دراسة العلاقة بين المكان والمكونات السردية الأخرى عن العلاقة المتينة التي تربط المكان بكل المكونات السردية، وهو ما جعل

المكان في هذه الرواية مكوِّنًا أساسيًّا تنصهر في داخله المكونات الأخرى، وتتفاعل معه تأثيرًا أو تأثّرا.

٨- تنوعت الأحداث والقضايا بحسب الأمكنة، وبدا حدث السفر من مدينة جدة إلى القرية الجنوبية حدثًا جوهريًّا مهمًّا مرتبطًا بالأمكنة وتغيراتها.

٩- كشفت الدراسة عن تنوع الدلالات المكانية نتيجة لتفاعل الشخصيات مع سياقها المكاني على محور الزمن، وتكشفت من خلال ذلك الدلالة النفسية للأماكن حبًّا وكرهًا، انتماء أو عدم انتماء، وظهر المكان حاملًا لهوية الشخصيات ومعبرًا عنها.

وختامًا أتمنى أن تكون هذه الدراسة قد حققت أهدافها المنشودة، ولا أدعي أني استوفيت الموضوع حقه من الدراسة، غير أنني بذلت الجهد والوقت، وعملت كل ما في وسعي في طلب الغاية المرجوة، فإن أصبت فبتوفيق من الله -عز وجل- والحمد لله أولًا وأخيرًا.

المصادر والمراجع

المصادر:

طاهر الزهراني، آخر حقول التبغ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٢٠م.

المراجع:

١- إبراهيم محمد الشتوي، دراسات في الأدب والنقد، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٧م.
٢- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).
٣- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٤- اعتدال عثمان، إضاءة النص، قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
٥- أوريدة عبود، المكان في القصة الجزائرية الثورية، دراسة لنقوش ثائرة، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.
٦- جورج صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (د.ت)، ١٩٩٤م.
٧- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.
٨- حسن حجاب الحازمي، البناء الفني في الرواية، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا، ط٢، ١٤٣٧/٢٠١٦م.
٩- حمد البليهد، جماليات المكان في الرواية السعودية دراسة نقدية، دار الكفاح للنشر والتوزيع، الدمام، ط١، ١٤٢٨هـ.
١٠- حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.

١١- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
١٢- خليل شكري هياس، القصيدة السير ذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
١٣- دارة الملك عبد العزيز، قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٣٥هـ.
١٤- سليمان كاصد، عالم النص، دراسة بنيوية في الأساليب السردية، دار الكندي للنشر، عمّان، ٢٠٠٣م.
١٥- سمر روحي، الرواية العربية البناء والرؤيا مقاربات نقدية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.
١٦- سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٧- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
١٨- محمد بوعزة، تحليل النص السردي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
١٩- مزينة يحيى مشاري، جماليات المكان في أعمال عمرو العامري السردية، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا، ط١، ١٤٤١هـ.
٢٠- منصور محمد البلوي، المفارقة في الرواية السعودية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٩م.
٢١- هالي بيرنت، كتابة القصة القصيرة، ترجمة أحمد عمر شاهين، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	١٨٩١
٢-	Abstract	١٨٩٢
٣-	مقدمة:	١٨٩٣
٤-	التمهيد	١٨٩٦
٥-	أولاً: مفهوم المكان وأهميته في العمل الروائي:	١٨٩٦
٦-	ثانياً: ملخص الرواية:	١٨٩٩
٧-	المبحث الأول : تمظهرات المكان في رواية آخر حقول التبغ	١٩٠١
٨-	المبحث الثاني : تقاطبات المكان في الرواية	١٩٠٨
٩-	الخاتمة	١٩٢٣
١٠-	المصادر والمراجع	١٩٢٥
١١-	فهرس الموضوعات	١٩٢٧

تم بحمد الله